

رأي ووجهة نظر

عن سوق حباشة (*)

أ. د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة في كتاب : القول المكتوب في تاريخ الجنوب، لغيثان بن جريس (الطبعة الأولى) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٤٢ هـ / ٢٠٢٠ م).
(الجزء الثامن عشر)، ص ص ٣٩٦ - ٤٠١ .

رابعاً: رأي ووجهة نظر عن سوق حباشة. بقلم: أ. د. غيثان بن علي بن جريس .

لن أخوض في الحديث عن سوق حباشة عند المتقدمين والمتأخرين ، وقد أشرت إليه في عدد من مؤلفاتي خلال الثلاثين عاماً الماضية ^(١) لذا أسرد النقاط الآتية :

١. هذا السوق (حباشة) كأي سوق شعبي قديم عند سكان الجزيرة العربية ، ورد ذكره سوقاً من أسواق العرب قبل الإسلام وبعده ، ولا يتميز عن غيره من الأسواق القبلية التي ظهرت في بلاد السروات وتهامة . وهناك أسواق غيره أقدم منه وأنشط ، لكنها جميعاً اندثرت ولا نعرف عنها أي شيء إلا ما ذكرته بعض المصادر والمراجع ^(٢) . وسوق حباشة كان موقع خصام واقتتال بين بعض العشائر في القرنين الأولين من عصر الإسلام ، ونجد بعض الروايات تذكر نهايته المؤلمة عندما خرب ودمر في نهاية القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) بأمر من والي مكة . ومن المؤكد أن هذا الوالي أخذ موافقه تدميره من خليفة المسلمين في العراق ، أمير المؤمنين محمد الأمين بن هارون الرشيد ^(٣) .

٢. بعد إنهاء حياة هذا السوق في صدر الإسلام اختفى ذكره في المصادر والوثائق حتى القرن (١٤هـ / ٢٠م) ، ومن يبحث في كتب التراث الإسلامي المبكر يجدها لا تذكره على الإطلاق من بعد تاريخ تخريبه عام (١٩٧هـ / ٨١٢م) ^(٤) . ومنذ العقود الأخيرة من القرن (١٤هـ / ٢٠م) ظهرت بعض الدراسات النظرية التي تخمن مكانه في الجاهلية والقرنين الأولين من الإسلام ، ومن يقرأ مادة هذه الدراسات المتأخرة والمنشورة يجد أصحابها غير متفقين على مكانه لكنهم

(١) أشرت إلى سوق حباشة في عدد من دراساتي مثل: دراسات في تاريخ تهامة والسراة (ق١٠-ق١٠هـ/ق٧-ق١٦م) ، الجزء الأول . وهناك صفحات متفرقة في سلسلة كتاب : القول المكتوب في تاريخ الجنوب (سبعة عشر مجلداً) .

(٢) عشت وتجولت وبحثت في جزئيات عديدة من بلاد تهامة والسراة ، ووجدت أن معظم القبائل كانت تمتلك أسواقاً أسبوعية ، وتقوم على حمايتها ، وبعض هذه الأسواق قديمة جداً ، وقد تتغير أسماءها وأماكنها والقبائل التي تشرف عليها وتحميها . وهناك أسواق مازالت إلى اليوم تقام في بعض أيام الأسبوع ، إلا أن معظم الأسواق الأسبوعية تلاشت واندثرت .

(٣) في الفترة التي تشير بعض المصادر أنه دمر في نهاية القرن (٢هـ / ٨م) كانت معظم بلاد الجزيرة العربية تستمد نفوذها وحكمها من بلاط الخلافة العباسية في بغداد ، وكان ولاية مكة هم المسؤولين عن بلاد تهامة والسراة الممتدة من الحجاز إلى نجران وجازان .

(٤) لا نجد ذكراً لهذا السوق بعد سنة خرابه عام (١٩٧هـ / ٨١٢م) ، وجميع مصادر التراث الإسلامي خلال القرون الوسطى تكفي فقط بما ذكره الأزرقى وابن سعد وغيرهما في القرنين الثاني والثالث من صدر الإسلام .

جميعاً ذكروه في نواحي وادي قنونا من العرضيات . ومن أهم الباحثين الذين أشاروا إلى هذا السوق منذ ثمانينات القرن الهجري الماضي إلى بدايات هذا القرن الأساتذة : إبراهيم حسن الفقيه ، وحمد الجاسر ، وعاتق بن غيث البلادي، وجاء بعدهم عدد من الباحثين ، وأنا واحد منهم ، فلم يخرجوا عن إطار ما ذكره أولئك الباحثون الأنف ذكرهم^(١) . وفي العقدين الأخيرين من هذا القرن (٢١٥هـ / ٢١م) ظهرت دراسات أخرى تعارض ما ذكر الفقيه والجاسر والبلادي وتقول أن سوق حباشة في نطاق بلاد بارق المعاصرة ، ومن ثم ظهر لنا فريقان مختلفان على مكان السوق أحدهما يقول إنه في تهامة العرضيات ، والآخر يقول في بلاد بارق الحالية^(٢) . وفي ظني أنه لو لم يرد رواية أن الرسول ﷺ جاء إليه في رحلة تجارية لخديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) لكان سوقا عادياً مثله مثل أي سوق ظهر ونشط ثم خرب واندثر .

٣ . وإذا توقفنا مع النصوص المبكرة التي أشارت إلى هذا السوق في صدر الإسلام ، فالقول أن الرسول ﷺ جاء إليه في رحلة تجارية ، فهذه رواية يتيمة ذكرها مصدر مبكر ثم تناقلتها المصادر من بعده ، ولو عدنا وفحصنا جميع كتب السير والسنة الدقيقة والحقيقية فإننا لا نجد هذه الرواية ، ولم تذكر أن الرسول ﷺ ذهب في رحلة إلى البلاد الواقعة إلى الجنوب من مكة المكرمة والطائف على حد علمنا . ولو ينبري لهذه القضية باحث ومؤرخ دقيق وحيادي فربما قرب من الحقيقة^(٣) .

أما المؤرخون الأوائل الذين ذكروا مكان السوق والعشائر التي تحميه أو تجاوره وأحياناً تتحارب فيه حتى جاء الأمر بخرابه وتدميره فقد دونوا أقوالهم بناءً

(١) لم يخرج الفقيه والجاسر والبلادي عن القول بأن هذا السوق في بلاد العرضيات ، لكنهم اختلفوا على مكانه ، وكانت براهينهم وأعمادهم على بعض الروايات المحدودة عند الأزرقى وابن سعد وغيرهما . ثم جاء بعدهم عدد من الباحثين فساروا على خطاهم ، وآخرون عارضوهم وقالوا إن هذا السوق يقع في بلاد بارق ، والمسافة بين المكانين تزيد عن مئة وخمسين كيلا .

(٢) هذان الفريقان المختلفان لا يملكان براهين قوية تؤكد لهم موقع السوق ، وإنما اختلفاهم يقوم على والتعصب ، فكل منهما يدعي أنه في بلاده ، وهما يعلمان أنه لا يوجد برهان واضح يحدد موقعه الصحيح .

(٣) من يفحص كتب السير والسنة لا يجد رواية أو روايات صحيحة تؤكد على سفر الرسول ﷺ في رحلة تجارية أو دعوية في بلاد تهامة والسراة الممتدة من جنوبي مكة والطائف إلى حواضر اليمن الكبرى . وقد اطلعت على العديد من الكتب والدراسات التي أحييت لي من بعض المؤسسات الرسمية أو الأكاديمية فكان بعضها يقوم بربط جزئية من تاريخ السيرة أو صدر الإسلام باسم علم أو ناحية ، مع أن مثل هذه الأعمال تقوم على روايات أو إشارات ناقصة أو سطحية في بعض كتب التراث الإسلامي المبكر .

على السماع وليس على المشاهدة ، فلم يثبت أن أحداً منهم جاء بلاد تهامة الممتدة من جنوب مكة إلى اليمن^(١) ، ومن يتأمل في رواياتهم يجدها مضطربة وغير دقيقة فهم يذكرون مناطق متباعدة جداً من بعضها مثل قنونا ، وحلي ، وبارق . ومن يتأمل في واقع هذه المواضع اليوم يجد أن المسافات بين بعضها البعض يدخل في خانة عشرات الكيلومترات ، وهذا يدل على أن الذي نقل لهم الرواية غير دقيق ، وهم أنفسهم لا يعرفون هذه المواضع . والواحد منا اليوم . ونحن من أهل المنطقة . إذا أراد أن يدرس ناحية ما في السروات أو تهامة فإنه يحتاج إلى أسابيع وربما شهور حتى يعرف سكانها ، وجغرافيتها وجذورها التاريخية والحضارية^(٢) . وللأسف إن كل من جاء بعد أولئك المؤرخين الأوائل نقلوا مروياتهم واعتبروها من المسلمات ، وهذه مشكلة كبيرة تعاني منها معاصر المؤرخين المحدثين ، وكتب التاريخ الإسلامي المبكرة لا تخلو من الحشو والمغالطات التي تحتاج إلى هيئات علمية كبيرة تتقحها من الشوائب^(٣) ، ومما يوجد فيها من الخلط والاضطراب .

٤ . من خلال العمل في الجامعة خلال العقود الأربعة الماضية شاهدت ، وسمعت ، وراجعت ، وفحصت العديد من الدراسات التي تحال إلينا من بعض المؤسسات الرسمية والأكاديمية ، وفيها الكثير من الأخبار والأقوال التي بنيت على حب مسقط الرأس وأحياناً التعصب لناحية ، أو حادثة تاريخية ، أو علم أو أعلام معينين ، فيقال: هذا المكان يعود إلى قبل الإسلام ، أو صدره ، وربما ذكر أسماء معارك ، أو نشاطات حضارية حدثت فيه ، وقد تذكر بعض البحوث أسماء أعلام من الصحابة والتابعين ينتمون إلى هذا المكان أو تلك الناحية . وعندما توضع الكثير من هذه الأقوال تحت الفحص والنقد العلميين فإنها

(١) أصحاب المصادر التي أشارت إلى سوق حياشة مثل الأزرقبي ، وابن سعد ، والبكري ، وياقوت الحموي وغيرهم دونوا معلوماتهم من السماع لبعض الرواة ، ولم يأت أحد منهم إلى بلاد تهامة ويقف على مكان سوق حياشة وغيره .

(٢) هذا ما عاصرته وعرفته وجربته وأنا أسير في مناكب تهامة والسراة منذ أربعين عاماً فهي بلاد متشابهة في جغرافيتها ، وصعبة في حزونها ومسالكها ، ناهيك عن تركيبها السكانية إذ يقطنها الكثير من القبائل والعشائر المتداخلة في النسب والأرض . ودراسة أي جزئية في هذه البلاد أمر ليس سهلاً وتحتاج إلى وقت ودراسة بالبلاد وأهلها .

(٣) نعم كتب التاريخ والتراث الإسلامي المبكر والوسيط لا تخلو من الأخبار والأحداث التي تحتاج إلى غربلة ونقد وتمحيص حتى يتضح الخطأ من الصواب ، وهذه مهمة علمية صعبة تستحق من الباحث وقتاً وجهداً كبيراً .

تسقط . وأذكر منذ ستة شهور أن حولت إمارة منطقة عسير إلى جامعة الملك خالد نوعاً من هذه البحوث ، وأصحابها يذكرون مكاناً ما في السروات ويوردون الكثير من المبررات التاريخية التي تصب في تميمته وتطويره حتى يكون على منوال مهرجان سوق عكاظ. وهذا القول نفسه هو الذي سمعته من بعض معاريف وأصدقائي من العرضيات وأهل بارق ، فكل منهم يطمح أن يقام هذا السوق في أوطانهم ويكون شبيهاً بسوق عكاظ في وقتنا الحاضر. وكل هؤلاء الإخوة الكرام في السراة وتهامة من حقهم أن يتمنوا كل خير ونفع يصب في خدمة بلدانهم وقراهم ، والدولة- وفقها الله- تسعى جاهدة إلى إيصال التطوير والتنمية إلى كل ناحية وصقع من أصقاع المملكة العربية السعودية، لكن محاولة تطويع الروايات والمعلومات حتى توافق هوى صاحبها نقص وسلبية في بناء البحث العلمي الحيادي والرصين^(١). وكل ما يوجد بين أيدينا عن سوق حباشة لا يعطينا صورة واضحة وواقية عن ظهوره ثم اختفائه ، وإذا طالعنا روايات تقليدية تذكر شيئاً من نشاطه ، ثم خرابه فهي أقوال ناقصة ومشوشة ولا يستطيع أحد من الأموات أو الأحياء في ضوء ما لدينا من معلومات أن يحدد موقع السوق في هذه البلاد الواسعة، بل إن قضية اندثاره وخرابه ، وربما تعاقب الزمن عليه خلال القرون الإسلامية الوسيطة جعلته يتلاشى ، ثم استبدل بسوق أو أسواق غيره ذات فائدة ونفع أكبر وأشمل^(٢) .

٥. قضية أنني ذكرت سوق عكاظ في النقطة السابقة ، لأنني اشتركت في ندوة مع أربعة أكاديميين غيري عام (١٤٢٧ - ١٤٢٨هـ) ، وكان أحدهم الأستاذ الدكتور ناصر الحارثي (رحمه الله) ، ومشاركات الجميع كانت تدور حول مكان سوق عكاظ الذي مازال مختلفاً عليه إلى الآن ، ولم يستطع أحد أن يحدد مكانه على وجه الدقة ، والجميع مختلفون ، لكن الاختلاف يدور في محيط رقعة جغرافية بمساحة (٣٠ كم^٢ X ٣٠ كم) تقريباً. فهذا السوق مع شهرته وذكوره في مئات

(١) نحن معاصر الباحثين والمؤرخين علينا مسؤولية كبيرة في تدوين بحوثنا وتوثيقها ، وعدم التأثر بمن حولنا، فالبحث العلمي أمانة، ويجب على الباحث أن يتصف بالصدق والحيادية في كل ما يقول أو يكتب .

(٢) القول بأن سوق حباشة تم خرابه وتدميره من أمير مكة بسبب الفوضى التي سادته قد تكون رواية غير صحيحة ، وإنما طول تاريخ هذا السوق ، ثم ظهور قبائل أخرى ذات نفوذ أرادت أن تدمره حتى تقيم سوقاً أو أسواقاً بدلاً منه . وكما شاهدنا وقرأنا في القرون الماضية ظهور واختفاء الكثير من الأسواق في عموم السروات وتهامة ، وأسباب القيام أو الاندثار تختلف من سوق لآخر. حبذا أن نرى باحثين جادين يدرسون الأسواق الأسبوعية في تهامة والسراة خلال القرون الثلاثة الماضية فهي ميدان جيد وواسع للبحث العلمي .

المصادر والدراسات ، إلا أنهم حتى الآن لا يعرفون المكان المحدد الذي كان يقيم فيه السوق قبل الإسلام وفي صدره^(١) . فما بالكم بسوق حباشة الذي نحن جميعاً مختلفون فيه ولا نعرف موقعه ، واختلافنا الآن يدور في نطاق كبير يمتد من وادي قتونا إلى بلاد بارق ، وربما نسمع غداً من يدعي أنه في وادي حلي أو في مكان آخر^(٢) . ونحن للأسف لا نملك حتى الآن البراهين والدليل القاطع الذي يوضح موقعه . وقد أشرت في حواشي كتابنا : **القول المكتوب في تاريخ الجنوب (الجزء الثاني عشر)**، إلى أنه لا يمكن أن نعرف المكان الصحيح لهذا السوق إلا بإجراء دراسات وحفريات علمية وأثرية قد تطلعنا على شيء من تاريخه وموقعه ، وهذا العمل لا يستطيع أن يقوم به فرد أو أفراد محدودون وإنما هو عمل مؤسسات علمية كبيرة تتولى تحقيق ما نتطلع إليه^(٣) ، ومن يقوم بذلك فيجب أن يكون حياً وانياً ونزياً ولا ينساق وراء الأهواء والرغبات الشخصية أو المناطقية . وإذا كنت ذكرت هذه الآراء والاقتراحات في حواشي الكتاب الأنف ذكره فقد راسلني وكلمني بعض أهالي العرضيات وبارق وهم غاضبون مما دونت ، لكن يجب علينا جميعاً أن نراقب الله في أعمالنا ، ونعلم أن ما نكتبه وندونه سوف يكون حجة علينا يوم القيامة ، ولهذا لا بد أن نعمل ونجتهد وفي الوقت نفسه نكون حيايين منصفين في أقوالنا ومدوناتنا^(٤) .

٦ . إذا كان هذا الاختلاف بين الفرقاء ناتج عن مشاريع تنمية سياحية مستقبلية تحمل اسم سوق حباشة ، وكل فريق يسعى إلى الفوز بهذا الاسم وهذه المشاريع

(١) صدر عن هذا السوق عشرات الكتب والبحوث العلمية التي تذكر جغرافيته وتاريخه الحضاري والأحداث السياسية والحربية التي جرت فيه أو على مقربة منه .

(٢) دعوى أهل بارق بأن سوق حباشة في أرضهم قريبة العهد ، لا تزيد عن عشرين أو ثلاثين عاماً ، والأمكنة التي ذكرها الأزرق في تهامة ومن جاء بعده قد يأتي أصحابها اليوم أو في المستقبل ويقولون إن السوق في أرضهم . وأعجب من هذا السباق بين هؤلاء الفرقاء المختلفين ، فهم جميعاً لا يبنون أقوالهم على دلائل وبراهين قوية وحقيقية . وإنما اعتمادهم على هذه الروايات النظرية الناقصة والمحدودة عند بعض المتقدمين .

(٣) في عموم بلاد السروات وتهامة عشرات المواقع الأثرية التي تستحق حفريات ودراسات أثرية جادة ، ولا يكفي أن نقصر علمنا على المرويات والمدونات المنقرقة في بطون كتب التراث . وإذا دعم البحث الأثري الجاد فقد نطلع على شيء من تاريخ بلادنا السياسي والحضاري قبل الإسلام وبعده .

(٤) الحيادية والنزاهة العلمية صعبة جداً في كتابة التاريخ ، لأن الإنسان يتأثر بمن حوله ، وبالزمان الذي يعيش فيه ، لكن من يضع مخافة الله نصب عينيه ، ويعلم أن ما يدون ويوثق سوف يحاسب عليه عند الله (عز وجل) ، فحذاري من تسجيل روايات وأقوال غير صحيحة من أجل كسب المال ، أو الشهرة ، أو أي فائدة محدودة وأنية .

فأرجو من الجميع عدم توظيف المعلومات التاريخية القديمة والقليلة والناقصة والمضطربة حتى تخدم مسعاه^(١). والعلم لا يخدم بهذه الطريقة ، ويجب ألا نقحم العلم الصادق النزيه في بناء مشروع أو تطوير ناحية ، وأن يخدم البحث العلمي للعلم نفسه ، دون توظيفه لأغراض وأهداف ضيقة ومحدودة^(٢). وأرجو من القائمين على دراسة هذا السوق أن يضعوا نصب أعينهم الحيادية وعدم الميل مع فريق دون آخر، وأن تخدم السياحة والتنمية في كل مكان ، وأن يبقى البحث العلمي الحيادي والصادق هو نبراس الجميع . وأقول إن الأمور البحثية عندما تقاس على أسس راسية وقوية ، فالنتائج سوف تكون - بإذن الله - قوية ومقنعة ، وإذا تم اتخاذ القرار بناءً على معلومات مغلوطة وخاصة فيما يتعلق بالتنمية فإنه سيظهر لنا نتائج سلبية ، وآخرون يدعون مكاسب أو تطلعات تبنى على عوامل وبراھين واهية وغير صحيحة . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على رسوله الأمين .

(١) هذا الذي سمعته من بعض الأجزاء التهامية ، بل سمعت من آخرين في أمكنة أخرى من بلاد السروات فهم يذكرون روايات أو أحداث تاريخية قديمة ثم يربطونها بالسياحة والتنمية الحديثة ويرون أن هذا الأثر التاريخي يعد رافداً قوياً في تمرير اقتراحاتهم ووجهات نظرهم لتنمية قراهم أو أوطانهم .

(٢) البحث العلمي الجيد يقوم على عوامل كثيرة منها : النزاهة ، والحيادية ، والصدق ، والأمانة ، والإنصاف ، وسعة العلم ، وتقصي الحقائق ، والصبر والحكمة ،